الخَوف من الأُردن ولَيس الخَوف عليه وراء انعقاد قِمّة مكّة الرّ ُباعيّة.. سِتّة أسباب تَقِف خلف هذا الانقلاب في المَوقِف السّ ُعوديّ الخَليجيّ..

والعاهِل الأُردني في المَوقِف الأَقوَى مُنذ تَولّ ِيه العَرش قبل 20 عامًا لماذا؟

عبد الباري عطوان

فَجأةً.. وبعد سَنواتٍ عِجاف من التّ َهميش السّ ِياسيّ والاستهداف الماليّ، والضّ ُغوط الإقليميّة والدوليّة الجَبّارة وغير المُحتَملة، تَحوّ َل الأُردن إلى الرّ َقم الصّ َعب الأهَم في المِنطَقة، يَركُض مُهَمّ ِشينه لمُغازَلته، وتَفهّ ُم أزماتِه، والإعراب عن الاستعداد لإلقاء طَوق النّ َجاة الماليّ له.. كيف حَدث هذا الانقلاب.. وكيف تغيّرت المَواقِف من النّ َقيض إلى النّ َقيض، وأصبَح الأُردن عَزيزًا غالِيًا؟ الإجابة يُمكِن حَصرُها في سِتّةِ أسباب:

ـ الأوّل: الرّ ُعب من انتقال عَدوى النّ َموذج الاحتجاجيِ الأُردني الشّ َعبيّ الحَضاريّ السّ ِلميّ الذي جاء نُسخَةً "مُنقّ َحةً" و"تصحيحيّة" لثَورات الربيع العربي إلى السعوديّة والدّ ُوَل الملكيّة في الجزيرة العربيّة، وهو انتقالٌ واردٌ بشِدّ َة في ظِل انهيار "الدّ َولة الريعيّة"، وانخفاض أسعار النفط، وتصاعُد التّ َوتّ ُر الطّ َائِفي، وتَصاعُد المُعاناة الشعبيّة من الضّ َرائِب العَلنيّة والسّ ِريّة.

ـ الثاني: القَلق من تَطوير الأُردن سِياسات الاعتماد على النفس اقتصاديًّا، وتحقيق الاكتفاء الذاتي ماليًّا، وتَبنّ ِي مشاريع "استغنائيّة" عن مُساعدات دول الخليج الماليّة، والسعوديّة والإمارات خاصّ َةً، الأمر الذي سيُعَزّ ِز استقلاليّة قراره السّ ِياسي وإنهاء مظاهِر "التبعيّة" القَديمة.

ـ الثالث: انهيار النظام الأُردني يعني نِهاية حقبة امتدت لمِئة عام تقريبًا، عُنوانها الاستقرار الإقليمي، وحُلول الفوضى على طُول 600 كيلومتر على الحُدود مع إسرائيل، وأطول مِنها مع الجزيرة العربيّة، واحتمال صُعود بدائِل ثَوريّة، فالأُردن هو "سُرّ َة" "الشرق الأوسط"، وإذا انقطعت "حِبال" استقرارها امتد الخَراب إلى المِنطَقة.

ـ الرابع: أدّ َت السّ ِياسات الخليجيّة في وَقف المُساعدات الماليّة عن الأُردن لمُدّ َة عامين تقريبًا، وانخراط السعوديّة ودول خليجيّة أُخرى في عمليّات تَطبيعٍ سِريّةٍ مع إسرائيل تتجاوز الأردن، وتسريب تقارير عن تأييد ولي عهدها الأمير محمد بن سلمان لصَفقة القرن، أدّ َت إلى تصعيد حالة العَداء في أوساط الرأي العام الأُردني لهذه الدّ ُوَل، وبِشَكلٍ غير مسبوق مُنذ حرب الكويت عام 1991.

ـ الخامس: تَزايُد الضّ ُغوط على القِيادة الأُردنيّة لتغيير تَموضُعِها الإقليميّ الاستراتيجيّ، والانتقال إلى معسكر المُقاومة بزَعامة إيران، وفتح المَزارات الشيعيّة أمام الزّ ُوّار الإيرانيين والعِراقيين، وإقامَة علاقاتٍ استراتيجيّةٍ بَديلة مع المَرجعيّة السّ ُنيّة العُثمانيّة في إسطنبول، في مُوازاة الانفتاح على قَطر العَدو اللّ َدود للمُثَلّ َث السعودي الإماراتي البحريني.

ـ السادس: الخِشية من خُروج الحِراك الاحتجاجي الأُردني من طابَعِه الاقتصادي، وتَحوّ ُله إلى حِراكٍ سياسيّ بطابعٍ اجتماعيّ مدنيّ، وقد أدرك العاهل الأُردني خُطورَة مِثل هذه النّ َقلة، وبادَر فَورًا إلى "إجهاضِها" من خلال إقالة حكومة هاني الملقي، واستبدالها بحُكومة أكثر قُبولاً من قبل المجتمع المدني الأُردني بقِيادة الدكتور عمر الرزاز، الذي يُوصَف بالنّ َزاهة ونظافَة اليَد، والعُمق الأكاديمي والخِبرة الإداريّة.

***

العاهِل الأُردني، وربّما للمَرّة الأُولى منذ تَولّ ِيه العَرش خَلفًا لوالده الراحل عام 1999، يذهب إلى الحجاز ومدينة مكّة المكرمة دُرّتها من مَوقِعٍ قويٍّ مَدعومًا بإرادةٍ شعبيّةٍ وبإدارةٍ مُتميّ ِزةٍ للأزمة نَجحَت في امتصاص الجُزء الأكبَر من احتقانٍ داخليٍّ كان من المُمكن أن يُؤدّ ِي انفجاره على المِنطَقةِ بأسْرِها.

الأُردن يعيش حاليّ ًا حالةً من الصّ َحوة السّ ِياسيّة والاجتماعيّة، تَرتَكِز على وِحدَة وطنيّة ذابت في مصهرها كل المَنابِت والأعراق، الفِلسطيني والشّ َرق الأُردني، والشمال والجنوب وبينهما الوسط، بيضة القبان، أي العاصِمة عمّان، وهذه وحدة وطنيّة غير مَسبوقة، عمودها الفِقريّ مُحارَبة الفساد والفاسِدين، والوقوف في خندق القضايا العَربيّة الوَطنيّة، وعلى رأسِها قضيّة فِلسطين.

القِيادة السعوديّة الجديدة أرادت أن يكون الأُردن ضَعيفًا تابِعًا مُتسَوّ ِلاً، يَلتزِم بشُروط الكَفيل، ويَرضَخ لعَضلاتِه الماليّة، وإملاءاته بالتّ َالي، ولهذا انتظرت أكثر من عشرة أيّام قبل أن تتحرّ َك لإنقاذِه، أو حتى التفكير في مُحاوَلة الإنقاذ هذه، وربّما كانت تنتظر أن تَصرُخ

القِيادة الأُردنيّة "مُستغيثةً" راضِخةً للشّرُوط المَطلوبة، ولكن هذهِ القِيادة لم تَذهب إلى الرياض، ولا إلى ابو ظبي، وظَلّت في مكانها راسِخةً، (الحَجر في مَطرحِه قنطار)، وفَضّلت التّنازُل للشّعب ومَطالِبه، وقَد أحسَنت الخَيار والتّوجّه.

نَكتُب هذه المقالة قبل انعقاد قِمّة مكّة الرّباعيّة التي دعا إلى عَقدِها العاهل السعودي الملك سلمان بن عبد العزيز على عَجل قبل يومين فقط، ولكنّه لا يَضعُب علينا التّكهّن بنتائِجها، وعُنوانها الأبرَز تقديم مُساعداتٍ ماليّة للأُردن، وربّما إحياء حُزمَة الخَمسة مليارات دولار التي انتهت مُدّتها قبل عام، ودون التزامِ مُعظِم الدّوَل الخليجيّة المُوقّعة بِبنودِها، وبشُروطٍ سِياسيّةٍ أكثر مُرونةً، ولكنّها تَظل حُزمَةً مُتواضِعةً تَجاوَزتها الأحداث.

دول الخليج ضخّت 50 مِليار دولار لدعم حكومة الرئيس عبد الفتاح السيسي في مِصر، لتَطويق آثار الثورة المِصريّة، ومنع انتقالها إلى دول الخليج، ولم تقدم للأُردن إلا فُتات الفُتات لأنّها كانت مُطمَئنّة لفَشل حِراكِه الشّعبيّ المُماثِل، وقُدرَة الدّولة على امتصاصِه "مَجّانًا"، في سُوءِ تَقديرٍ غير مُتوَقّع، وقِراءةٍ "حولاء" للخَريطة الإقليميّة الجَديدة، ومخاضاتها الشعبيّة، فجاء الحِراك الحاليّ الذي أطاح بالحُكومة ليَخلِط الأوراق، ويَكْشِف الغِطاء، ويَفرِض شُروطه، ويُطَوِّر أدوات أكثر فاعِليّةً، فهل سيَحصُل الأُردن على نِصف ما حصلت عليه مِصر على الأقل؟

***

لا نَمْلُك إجاباتٍ فالقِمّة الرّباعيّة لم تُعقَد بعد مِثلما قُلنا آنِفًا، ولكنّنا نَتَوقّع، أو بالأحرَى نأمَل، أن يعود العاهل الأُردني إلى عمّان وجُعبَته مليئة بالمِليارات، وبِما يُعفِي حكومته الجديدة، التي ما زالت في طَور الوِلادة، من الرّضوخ لشُروط صُندوق النّقد الدولي المُهينة وغير الإنسانيّة.

الأُردن يَتغيّر وبِسُرعة، وباتَ في وضع يُؤهّلِه للتّمرّد على إرْث الإملاءات الأمريكيّة والإسرائيليّة وحُلفاء جاريد كوشنر، صِهر الرئيس ترامب، وتابِعه نتنياهو في مِنطَقة الخليج، إملاءات فَرْضْ صفقة القرن، وتَهويد القُدس ونَزع الوِصاية الهاشميّة كُليًّا عن المُقَدّسات.

تَوقّف المُساعدات الخليجيّة جاء في اعتقادنا خَيرًا للأُردن، لأنّه أعاد الوَعي والثّقة بالنّفس إلى الأُردنيين شَعبًا وقِيادة، وقد أصاب الملك عبد الله الثاني كبد الحقيقة في خِطابِه تَجاوبًا مع مَطالِب المُحتَجّين بقَولِه "لا بُد من الاعتماد على النّفس. لن يُساعِدنا أحد إذا لم نُساعِد أنفسنا.. ولا بُد من الاعتماد على أنفُسنا أوّلاً وأخيرًا"، وربّما كانت هذه العِبارات كَلِمة السّر التي عَجّلت بالدّعوة لانعقادِ قِمّة مكّة.

الأُردن لن يَقبَل، ولا يَجِب أن يَقبَل، إلا بالخُبز المَجبول بالكَرامة، فقد اكتشف شارِعُه أهم مَصادِر قُوّته، وسَيمضِي قُدُمًا في تَطويرِها في إطار وِحدةٍ وطنيّةٍ تَزداد تَرسّخًا.. وهذا

مُلخّص رسالته، أي الشّعب، لقِمّة مكّة التي تُعقَد تحت ظِلال الكَعبة المُشَرّفة، وإرث الدّعوة المُحَمّديّة الإسلاميّة الهاشِميّة التي جاءَت رَحمةً للعالَمين.